دراسة عن فن العمارة والنحت

فن العمارة:

نشط السومريون نشاطاً كبيراً في مجال الإعمار والبناء، فقد شيدوا العديد من الأبنية في أغلب المدن العراقية القديمة في الجنوب والوسط العديد والشمال، إلا أن من المؤسف حقاً هو اندثار بعض هذه الأبنية بسبب ضغط مقاومة مادة بنائها (اللبن) لعوامل الطبيعة، ومع ذلك فأن هذا لا ينقص من عظمتهم وابداعاتهم الفطرية في فنون العمارة. فقد أولى السومريون اهتماماً كبيراً في بناء المعابد التي توزعت على أغلب مدنهم، فقد كانوا يصرون على أن يكون لكل إله من الهتهم العديدة معبد خاص تقدم فيه طقوس العبادة. فيكسبوا بذلك رضا هذه الآلهة التي تتحكم بشكل أساسي في شؤون الحياة، ومع اهتمام السومريين ببناء بيوت الهتهم، فأنهم لم ينسوا فكرة بناء مقرات أو قصور لحكامهم فإلى هذا العصر ترجع أقدم فكرة في إيجاد بناء كمقر للحاكم يمكن أن نطلق عليه اسم قصر بكل جدية. إن ظهور فكرة بناء القصر إلى حين الوجود تشير إلى ظهور سلطة الحاكم الدنيوية كقوة منافسة لسلطة الكهنة الدينية المتمثلة في المعبد. لهذا خضع فن العمارة السومرية بشكل خاص والفنون السومرية الأخرى لمثل هذه القوة المتنازعة داخل حيز دويلة المدينة.

1- المعابد السومرية:

بنى السومريون عدداً كبيرا من المعابد توزعت على أغلب المدن السومرية وخصصت لعبادة الهتهم شأنهم في ذلك شأن العراقيين القدماء في العصر السابق. والمعابد السومرية هذه تشترك في بعض خواصها الفنية المعمارية مع معابد العصر الشبيه بالتاريخ وتختلف عنها في خواص أخرى.

تبنى المعابد السومرية على سطح الأرض. أو على دكة اصطناعية عالية من اللبن. فقد كانوا منشدين كذلك نحو سلم السماء بقصد تقليل الهوة بينهم وبين آلهتهم. ومادة بنائها نوع من اللبن أطلق عليه مؤرخو الفن اسم المستوى المحدب ويتميز بجانب مستقيم وآخر محدب،

وكان يبني بوضع شاقولي باستعمال الطين كمادة رابطة، ولقد تنوعت مخططات المعابد، فقد تكون مربعة أو مستطيلة أو بيضوية الشكل، يحيط بها سور ضخم أو سورين في بعض الأحيان لعزلها عن العالم الدنيوي المحيط بها، وتتجه أضلاع السور نحو الجهات الأربع، ويتميز بوجود عدد من الطلعات والدخلات كانت لها وظائف معمارية وجمالية، وهذه صفة معمارية فنية ظهرت في معظم أبنية المعابد من العصور اللاحقة، وأكبر أجزاء المعبد ساحة مكشوفة تتوسط البناء يختلف شكلها استناداً لشكل المعبد، يتوزع على جوانبها عدد من الغرف، تخصص احداها لوضع تمثال الآلهة، وتسمى بقدس الأقداس Cells وتكون مستطيلة الشكل يوضع تمثال المعبود في الزاوية البعيدة عن مدخلها. ولذلك تنتمي المعابد السومرية إلى نظام المعابد السومرية إلى نظام المعابد ذات المحور المنكسر Bent Axes.

وفي هذه المعابد لا يمكن التلع لتمثال الإله من مدخلها الخارجي، أما الغرف الأخرى فيتراوح عددها حسب أهمية المعبد وتخصص لسكت الكهنة، وخزن حاجيات المعبد.

ولد أوجد المعمار السومري أسلوبا جديدا في تزيين واجهات بعض هذه المعابد مما أضاف جمالاً مدهشاً للأبنية، وذلك باستخدام أفاريز من منحوتات عملت وحدات مشاهدها من العاج أو الصدف أو الحجر وثبتت على قواعد حجرية وتمثل واضيعها أشكال حيوانات وطوير، كانت تشكل جزء من ثروة المعبد. والبعض منها تمثل فعاليات حلب الأبقار وصنع الألبان وحزنها وهي إحدى الصناعات التابعة للمبعد والتي يؤديها أتباعه من اهمال، كما يظهر ذلك على واجهة الإله تنخرسالك في مستوطن العبيد ومن أجمل المعابد السومرية هو ما سمي بالمعبد البيضوي في خفاجي (شمال شرق بغداد).

2- القصور السومرية:

ولأول مرة في تاريخ العراق القديم، بني البعض من حكام دويلات المدن السومرية، أبنية خاصة لهم لغرض السكن والإدارة يمكن تسميتها بالقصور الملكية. وهذا القصور تختلف في خواصها المعمارية الفنية عن المعابد في كونها محاطة بأسوار ضخمة مزودة بعض الأحيان بأبراج دفاعية للدفاع عنها، ولا تتجه أضلاعها نحو الجهات الأربع، وتكون خالية من نظام الطلعات والدخلات تلك الصفة المعمارية الملازمة للأبنية الدينية، كما أن أبنية القصور تكون أكثر تعقيدا في تركيبها المعماري من المعابد، فإذا كان المعبد العالي انتصاراً للعمارة العمودية،

فإن القصور تعد تفوقاً لامتداد العمارة الأفقية، حيث تضم بداخلها عدداً كبيراً نسبيا من الساحات المكشوفة التي تتفتح احداها على الأخرى في أغلب الأحيان، ويحيها عدد كبير من الغرف يزيد عددها على ثلاثين غرفة، كي تتسع لسكن الحاكم وحاشيته ولأداء أعماله الإدارية.

وإذا حاولنا المقارنة بين الأنظمة الهندسية لأبنية المعابد والقصور نرى أن الجزء المركزي في كل منها هو ساحة فسيحة يتوزع على جوانبها عدد من الغرف. وقد تم الإكتفاء بساحة واحدة في المعبد. بينما كرر المعماريون في القصر عدداً من الساحات فأنتجوا بناء معقد يختلف عن المعبد بسعته وفخامته وكثرة مرافقه البنائية فقط.

لقد زينت بعض واجهات القصور وجدران ساحاتها من الداخل بمشاهد بشكل أفاريز من العاج أو النحاس أو الحجر، متشابهة بتقنيتها الفنية تلك التي استعملت في المعابد، وكانت تثبت على قواعد أو تلصق مباشرة على سوح الجدران، وتختلف بمواضيعها عن مثيلاتها في المعابد. إذ أن مواضيعها كانت حربية تصور استقبال الحكام للجيوش المنتصرة. ومع ظهور أبنية القصور في هذا العصر إلا أن ولع السومريين الذين أخلصوا لفكرهم الديني كثيراً كان موجهاً نحو بناء المعابد والاهتمام بها أكثر من أبنية القصور.

وبشكل عام يبدو من ملاحظتنا للمخططات الأرضية للأبنية. تفرد العمارة العراقية القديمة بفكرة عدم استخدام الأعمدة لرفع السقوف، فالعمارة السومرية كانت تنفر من هذا الأسلوب، لذلك كانت الساحات الفسيحة مكشوفة، لتعذر إيجاد طول مناسب من جذوع الأشجار يمكن أن يفي لغرض التسقيف أولاً ولأجل إيصال النور إلى الغرف الطولية الضيقة المسقفة بجذوع الأشجار والمنتظمة حول جوانب هذه الساحة.

النحت السومري:

لعب الوازع الديني الذي يقضي بعبادة الآلهة، وضرورة التقرب إليها من قبل البشر دوراً كبيراً في جعل أعمال النحت عند السومريين وعلى الأخص أعمال النحت المجسم ذات طبيعة دينية، فلقد وجد فنان النحت السومري في الدين إلهامه الأول. إلا أن هذا التسلط الكهنوتي لم يكن هو القوة المؤثرة الوحيدة التي كبلت حرية الفنان. فإن بعض نماذج النحت البارز تخلد مشاهدها أحداثاً سياسية، إذ أنها تعرض بأسلوب قصصي متسلسل انتصارات الحكام الحربية.

فالنحات السومري بخصوص الموضوع والفكرة وجد نفسه بين قوتين متنافستين كبيرتين هما سلطة الكهنة الدينية وشخصية الحاكم كقوة سياسية بدأت تشعر بأن يكون لها اعتبار هام في حياة @ المدنية السومرية.

استخدم النحات السومري مواداً عديدة ومتنوعة لتشكيل منحوتاته، فقد استخدم حجر الكلس الهش بألوانه البيضاء والرمادية والمائلة للإصفرار وأحجار البازات والرخام والديورايت الأسود والستياتيت الصلبة. وبالإضافة للأحجار حقق النحات تفوقاً كبيراً في استخدام لمعادن لعمل تماثيله ومنحوتاته البارزة. باستخدام الصلب بالقوالب المفرغ أو الصلد، فشاع استعمال البرونز والذهب والفضة والنحاس، وكان نحات السومريين ميالاً لتنويع مواد خام تماثيله، فكان يطعم بعض أجزاء المنحوتات بأحجار ثمينة ذات ألوان براقة، فأكسب أعماله بذلك جمالاً بديعاً يعتمد على تنوع وتعدد الألوان. ومعظم هذه المواد يندر وجودها في البيئة الطبيعية السومرية، لذلك يرجح أنها جلبت عن طريق التجارة من أماكن شتى، خصوصاً وأن الكتابات السومرية تتحدث عن تجارة نشطة من مناطق بعيدة جغرافياً عن بلاد سومر.